بيروت
وبعضُ ما جاء من القول فيها
(لمناسبة إعلانها عاصمةً ثقافيّة
للعالم العربيّ العامَ ١٩٩٩)

أنطون بشاره قيقانو(٥)

توطئة

لم تُنعَت مَدينةٌ قديمًا وحديثًا بما نُعتت به بيروت من ألقاب وأوصاف. ولمناسبة إعلانها من جانب الأونسكو عاصمةً ثقافيّةً للعالم العربيّ العام ١٩٩٩، رأينا من الفائدة أن نستعرض بعض ما جاء من تلك الأقوال على ألسنة الرحّالة والمُؤرّخين والكُتّاب والشعراء الذين هاموا بحُسنها وافتتُنوا بجمالها، فأطْرَوْها بأجلّ الأوصاف، وبأجمل النعوت. فهي أمُّ الشرائع، ومُرضعة العلوم، والمدينة اللطيفة التي لا تعرف العبوس أبدًا، تنهض سراعًا من كبوتها كالفينيق الذي ينبعث من رماده، وهي الدُّرّة في تاج سلاطين آل عثمان، والعروس الشابّة التي لا يعتريها تغضُّن أبدًا، المضطجعة على شاطئ الأزرق الخفّاق يغسل أقدامها، فتزداد حسنًا وألقًا، وأخيرًا وآخرًا، فهي «ستُّ الدنيا».

---

(٥) باحث من بيروت. من مؤلّفاته: المنجد في الحروف وإعرابها؛ أسرة قيقانو، تحقيق تاريخ ولاية سليمان باشا العادل، ١٨٠٤-١٨١٩ لمؤلّفه المعلّم إبراهيم العوره.

وهنا تجدر الإشارة إلى أنَّ الأحداث الدامية التي عصفت بالبلاد طوالَ ستَّة عشر عامًا (١٩٧٥-١٩٩٠)، وأدَّت إلى تدمير بيروت وحرقها وخرابها، قد أيقظت لدى الكتَّاب والشعراء حنينًا لم يسبق له مثيل، فراحوا يتغنَّون بها وبماضيها القريب المُزدهر، وبأسواقها وشوارعها وساحة برجها ومقاهيها، وبأنَّها عاصمة المال والجمال والثقافة والأناقة. وعلى الرغم ممَّا نزل وحلَّ بها، فإنَّها لكذلك ستبقى، بإذن الله، أمَّ المدائن وعروسة المتوسِّط بلا منازع.

وبعدُ، فهذا بَرْضٌ من عِدّ، ممّا جاء من القول فيها، نُثبتُه مرتَّبًا ترتيبًا زمنيًّا - كما ورد -:

○ «أُمُّ الشرائع»

ليانوس

من خطاب للسيِّد بولس هوفلان أستاذ الشرع الرومانيّ في جامعة ليون، ألقاه في جامعة القدّيس يوسف للآباء اليسوعيّين لمناسبة تدشين كلّيّة الحقوق الفرنسيَّة في بيروت (لسان الحال ٣٧ [الإثنين ٢٤ تشرين الثاني ١٩١٣] صفحة ٢ ع ١). وهذا القول اتَّخذته بلديّة بيروت منذ العام ١٩٦٠ شعارًا للمدينة، على شاكلة درع من رسم الفنّان جهامي، يحمل في قسمه الأعلى كتابًا مفتوح الدفَّتين، عليه باللغتين اللاتينيَّة والعربيَّة «بيروت أمّ الشرائع»، وفي قسمه الأسفل مركب فينيقيّ، ومن ثمّ صار شعارًا لكلّ مؤلَّفٍ عن بيروت أو مؤتمرٍ يُعقد باسمها (راجع على سبيل المثال: ميثاق بيروت *Charte de Beyrouth* الذي صدر العام ١٩٧٣).

○ «أُمُّ العلوم وظئر (مُرضعة) الشرائع».

جوستنيان

(لبنان، لإسمٰعيل حَقّي بك، ١: ٢٧٦، طبعة دار لحد خاطر، بيروت، ١٩٩٣).

٥ «الجامعة لكلّ دساتير الشرائع الرومانيّة».

أحد الجغرافيّين اليونان

(المصدر السابق ١: ٢١٦).

٥ «بيروت الميمونة».

كما ينعتها الشاعر اليونانيّ نيتوس في ملحمته.

(الأنوار، [الجمعة ٢٦ شباط ١٩٩٩] صفحة ١٥ ع ١).

٥ «بيروت أو جوليا السعيدة».

أوغسطس قيصر

وقد دعاها باسم ابنته جوليا المبجّلة السعيدة Felix تيمُّنًا وتحبُّبًا.

(لسان الحال، [الثلاثاء ٢٨ تمّوز غ و١٥ تمّوز ش ١٩٠٨] ص ٢ ع ٢).

٥ المدينةُ البَهِجَةُ المستكملة الحضارة».

كاتب لاتينيّ

(لبنان، لإسمٰعيل حقّي بك، ١: ٢٧٦، طبعة دار لحد خاطر، بيروت، ١٩٩٣).

٥ «زهرة فينيقية».

أغاثياس الشاعر اليونانيّ

(لبنان، لإسمٰعيل حَقّي بك، ١: ٢٧٧، طبعة دار لحد خاطر، بيروت، ١٩٩٣).

٥ «المدينة الفائقة الجمال».

السائح أنطونين المعروف بالشهيد

(لبنان، لإسمٰعيل حقّي بك، ١: ٢٧٧، طبعة دار لحد خاطر، بيروت،

١٩٩٣؛ وبيروت، تاريخها وآثارها، للأب شيخو، صفحة ٦٠، ط ٣، دار المشرق، بيروت، ١٩٩٣).

○ «اللؤلؤة المشعّة في تاج مملكة أورشليم».

المؤرّخون الصليبيّون

هكذا دعوها في مصنّفاتهم عِندَ ذِكرهم لَها.

(عن فؤاد أفرام البستانيّ في لبنان الدائم، الحلقة المذاعة من المحطّة اللبنانيّة للإرسال (LBC) مساء الجمعة ٢٥ أيلول ١٩٨٧).

○ «... وأمّا بيروت فهي من أحصن مدن الساحل وأنزهها وأطيبها».

إبن الأثير

(الكامل في التاريخ، ٩: ١٨٠، المكتبة التجاريّة الكبرى، مصر، نقلًا عن تاريخ المساجد والجوامع الشريفة في بيروت، صفحة ٧٤هـ، تأليف طه الوليّ).

○ «بيروت على ساحل بحر الروم... حصينة، متينة السور، خصبة، رخيصة الأسعار، جيِّدة الأهل».

إبن حوقل

(لبنان، لإسمٰعيل حقّي بك، ١: ٢٨٤ و٢٨٥، طبعة دار لحد خاطر، بيروت، ١٩٩٣).

○ «قال ابن بطّوطة: ومدينة بيروت حسنة الأسواق، وجامعها بديع الحسن».

الإدريسيّ

(المجاني الحديثة، ٥: ١٦٣، المطبعة الكاثوليكيّة، بيروت، ١٩٦٦).

○ «فلاحت لنا بعد ذلك بيروت، المدينة الكبيرة، وهي حافلة بالسكّان،

تحيط بها البساتين، ولها مرفأ شهير بحسنه، ليس هو من تكوين الطبيعة بل من عمل الصناعة، وهو داخل في وسط المدينة على شبه الهلال، فترى برجَيْن كبيرَيْن قد شُيِّدا على طرفَيْه، تمتدُّ بينهما سلسلة ضخمة تصون من الغزاة المراكبَ التي في داخل الدائرة، وبيروت تعدُّ كحدٍّ لفينيقيّة ولسوريّة».

يوحنّا فوكاس

(**بيروت، تاريخها وآثارها**، للأب شيخو، مطبعة المرسلين اليسوعيّين، بيروت، ١٩٢٥، ص ١٢٦؛ والطبعة الثالثة، دار المشرق، بيروت ١٩٩٣، ص ٧٧).

○ «المدينة التي لا تعرف العبوس أبدًا».

الأب هنري لامنس

(**المشرق** ٢ [١٨٩٩]: ٩٧١).

○ «باريس الصغيرة».

كما كان ينعتها الفرنسيّون في القرن السابع عشر (**تاريخ لبنان العامّ** ١: ٤٢٢هـ ١، تأليف الدكتور يوسف مزهر، نقلًا عن الأب لامنس) لكثرة القناصل فيها؛ وانظر أيضًا **الأنوار**، [الثلاثاء ١٦ أيلول ١٩٩٧] ص ١ ع٣).

○ «أمّا مدينة بيروت فمنازلها مبنيّة من حجرٍ أبيض برّاقٍ، تحيط بها الحدائق الغنّاء مع أشجار الصنوبر والسرو، وهي تعيش على موسيقى أبديّةٍ لأمواجٍ تُقبِّل بهدوءٍ وجنات الشاطئ البيروتيّ الجميل، ويبدو أنَّ هذا الموقع المهمّ للمدينة يجعل رغبات الطامعين في الماضي بخيراتها لا تُعَدُّ ولا تُحصى، والساحل اللبنانيّ - السوريّ يُشكِّل ثروةً سياحيّةً مهمّةً للغاية. وقد شاهدنا عن بعدٍ عند شروق الشمس سلسلة الجبال مكلّلةً بالغيوم البيضاء وبالثلوج، إنّه لمنظر رائع جدًّا».

غوستاف فلوبير *G. Flaubert*

بيروت سنة ١٨٥٠ كما وصفها الكاتب - الرحّالة غوستاف فلوبير، وكان قد وصل إليها من الإسكندريّة مساء الجمعة من العام ١٨٥٠ (راجع العمل، [الخميس ٢٤ كانون الأوّل ١٩٨٧]، ص ٨ ع ٣).

٥ «... ويظلُّ المسافر يتنقل من غابةٍ إلى غابة، ومن موجةٍ إلى موجة، وينقّل الطرف بين تلك الرائعات من المشاهد إلى أن تبدو له بيروت في حسنها المسرد وجوامعها وقببها ومعالمها، فيُخيَّلُ له إنّها إحدى مدائن العرب في عهود الصليبيّين؛ تنبسط على الشاطئ الذي يُطِلُّ عليه صنّين الجبل الذي يستقرُّ الشتاء على رأسه، والربيع بين حناياه، والصيف تحت أقدامه، وتنظر إلى البحر الأزرق المتموّج أمامها كحسناء تنظر في مرآةٍ... وقد قال لامارتين: «الشرق جنّة الله في أرضه، وبيروت جنّة الشرق، فهي جنّة في جنّة».

غبريال شارم *G. Charme*

بيروت سنة ١٨٨٣، كما وصفها الكاتب المذكور (لسان الحال، ٤٤، [الثلاثاء ١٧ أيّار ١٩٢١]، ص ٣ ع ١ و٢).

٥ «دُرَّةٌ في تاج سلاطين آل عثمان».

غليوم الثاني (إمبراطور ألمانيا)

(السلاسل التاريخيّة في أساقفة الأبرشيّات السريانيّة، صفحة ٤٠١، تأليف الفيكونت فيليب دي طرّازي، المطبعة الأدبيّة، بيروت، ١٩١٠، وفيه (ص ٤٠١) فصل ممتع معقود عن بيروت، فليراجع؛ والمشرق ٦٦ [١٩٩٢]: ٤٦١؛ وقد قال ذلك في أثناء زيارته الشهيرة لبيروت، بدعوة من السلطان عبد الحميد الثاني من السبت ٥ تشرين الثاني ١٨٩٨ إلى السبت ١٢ منه، وهو يستشرف المدينة وقد خلبه سحرها من على متن طرّاده هو هنزولرن).

٥ «نقطة الدائرة لجميع البلاد الشرقيّة بإهمّيّتها التجاريّة والعلميّة والعمرانيّة».

الفيكونت فيليب دي طرّازي

(السلاسل التاريخيّة في أساقفة الأبرشيّات السريانيّة، ص ٤٠١، المطبعة الأدبيّة، بيروت ١٩١٠).

○ «بيروتُ جوهرةٌ في تاج لبنان، محروسةٌ بسيوفِ الإنسِ والجانِ
يُزمجرُ البحرُ حَوَلَيْها ليطرَحَها، في غَوْره بين ياقوتٍ وَمُرجانِ
كأنَّها - وظلامُ اللَّيل ساوَرَها- قرصٌ من النُّور محفوفٌ بشُهْبَانِ»

محبوب الخوري الشرتونيّ

(إذاعة لبنان - مجلّة الإذاعة اللبنانيّة، [كانون الثاني ١٩٧٤] صفحة ٩ ع ١).

○ «أجمل ميناءٍ على البحر المتوسّط».

قائد الأسطول الأميركيّ السادس

(لسان الحال ٧٩، [السبت ٢٩ تشرين الأوّل ١٩٥٥] ص ١ ع ٤).

○ «بيروت عاصمة الكتاب».

طه حسين (١٩٥٥)

○ «... وبيروت قبل خمسين سنة (١٩٢٢)، كانت غير بيروت اليوم (١٩٧٢) من حيث العمران وازدحام الشوارع بالسيّارات، ولكن بيروت كانت وستبقى دومًا مركز إشعاع روحيّ وفكريّ وأدبيّ وقوميّ للعالم العربيّ خاصّةً وللإنسانيّة عامّةً، وستبقى مركز تلاقٍ بين الحضارات».

الدكتور فاضل الجمالي

(ذكريات فاضل الجمالي عن أوّل بعثةٍ دراسيّةٍ عراقيّةٍ إلى لبنان، الحياة، [الجمعة ١٧ آذار ١٩٧٢] صفحة ٣ ع ٣).

○ «لا ينطلق أدب بحريّةٍ إلّا من بيروت».

أكرم زعيتر (سفير الأردنّ، ١٩٧٣)

○ «إنَّ الإشعاع الثقافيّ هو في بيروت وليس في القاهرة».

طه حسين

(نقلًا عن أنيس منصور في الأنوار، [الثلاثاء ١٧ أيلول ١٩٩١] ص ١٥ ع ٦-٧).

○ «بيروت الجميلة التي تركت آثارها على هذا الشعب».

البطريرك ألكسي الثاني (بطريرك موسكو وكلّ روسيا)

عند زيارته لبنانٍ في ٥/١٠/١٩٩١.

○ «بيروت، وطني الثاني، عشقتُ شوارعها وبيوتها، وقضيتُ فيها أيّامًا أعتزُّ بها، وقد صوَّرتُ فيها الكثير من أفلامي...».

المخرج هنري بركات

(الأنوار، [السبت ٢٩ شباط ١٩٩٢] ص ١٣ ع ٥).

○ «إنَّ بيروت هي أعجوبة في دنيا العرب».

الدكتور نقولا زيادة

(الأنوار، [الثلاثاء ٢٢ أيلول ١٩٩٢] ص ٨ ع ٥ و[الإثنين ٥ تشرين الأوَّل ١٩٩٢] ص ٨ ع ١).

○ «مدينة من الصعب أن تجد لها بديلًا». «بيروت التي لا يوجد في الدنيا لها مثيل» «سِتُّ الدُّنيا».

نزار قبّاني

(الأنوار، [الإثنين ٧ كانون الأوَّل ١٩٩٢] ص ١ ع ٣ و٤).

○ «أنا مجنون بيروت،

ولن يستطيع أحد أن يخطفها منِّي».

نزار قبّاني

(الأنوار، [الأربعاء ٩ كانون الأوّل ١٩٩٢] ص ١٦ ع ٥).

○ «إنَّ بيروت كانت ولا زالت وستبقى إحدى عواصم الإشعاع والثقافة والفكر».

محمّد عبد العزيز الكواري (وزير الثقافة في دولة قطر)

(الأنوار، [الجمعة ٧ كانون الثاني ١٩٩٤] ص ٤ ع ٦).

○ «أبحثُ في بيروت عن لون عيني...
عن قصائد الحبّ التي ترفضها قبيلتي».

الشاعرة سعاد الصبّاح

(الأنوار، [الثلاثاء ٨ نيسان ١٩٩٧] ص ١١ ع ١).

○ «إنَّ بيروت ليست مجرَّد مكانٍ لقيام نشاط منظَّمة دوليَّةٍ؛ إنَّها مركز إقليميّ، دوره كان دائمًا أكبر من حدوده، وأهمِّيَّته ليست في الرقعة التي يحتلُّها، وإنَّما في الدور الذي يلعبه، سواء في الثقافة أو الإعلام أو الفنون».

حازم ببلاوي (أمين عامّ منظّمة الإسكوا التنفيذيّ)

(الأنوار، [الخميس ٤ كانون الأوَّل ١٩٩٧] ص ٧ ع ١).

خاتمة

إلى هنا ينتهي بنا ما جاء من القول في بيروت، وهذا لا يعني أنَّ القول فيها قد انتهى. فقد تقال فيها أقوال كثيرة - بعدُ - نترك جمعها وتدوينها لمَن سيأتي بعدنا عاشقًا هذه المدينة التي لا تموت.

صدر عن دار المشرق